نـوح عـلـيـه الـصـلاة والـسـلام

الخـطـبة الأولى **١٤٠٨/٣/٨هـ**

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبـــده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً.

أما بعد: فإن على الداعية المسلم أن يقرأ دعوة الرسل لأقوامهم، وما لاقاه كل رسول من جراء هذه الدعوة ليقف على الشيء الكثير من أخـــلاق البشر في بداوتهم وتحضرهم وطباعهم وعاداتهم ، لكي يسير في إصـــلاحه على هدى ، لأن نفوس المفسدين في كل زمان متقاربة، ووســـائلهم في محاربة الحق متشابهة ، ومن أجل أن يجد المصلح ما يشدّ عزمه ويُنير قلبه ، ويعلم أنَّ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على اتفـــاقهم في الأصـــول يُعنون عناية خاصة بالأمراض التي تحيق بأقوامهم .

ونحن اليوم مع أول رسول من رسل الله مع نوح عليه الصلاة والـــسلام، فحياته حياة شاقة مريرة ، ومحنته مع قومه محنة شديدة أليمة ، فقد أقـــام بينهم قروناً طويلة فلم يَرَ إلا آذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً ، وعقولاً متحجرة، لقد كانت نفوسهم أيْبَس من الصخر وأفئدتهم أقسى مـــن الحديـــد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير ، كلما ازداد لهـــم نصحاً ازدادوا له عناداً ، وكلما ذكّرهم بالله زادوا ضلالاً وفساداً، وظلوا في طريق الضلال سائرين ، لا يلتفتون إلى دعوة نوح ولا يبالون بتحذيره وإنذاره ، وقد مكث تسعمائة وخمسين عاماً داعياً مذكّراً ناصحاً مـــع أن عمره أطول من ذلك ، أما تلك المدة فهي مدة دعوته ، وســـلك جميـــع الطرق الحكيمة معهم لإنقاذهم من الضلال وإبعادهم عن عبادة الأصـــنام

والأوثان ، وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ومع ذلك لم تَلِنْ قلوبهم ، فلما يئس نوح عليه السلام من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان أوحى الله سبحانه تعالى إلى نوح بأنه لن يؤمن من قومه أحد بعد القليل من المؤمنين الذين آمنوا به كما قال تعالى:﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود:٣٦] عند ذلك التجأ نوح عليه السلام إلى الله بالدعاء على قومه بالهلاك والدمار فاستجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان فلا يبقى منهم أحد ، وأوحى إليه بأن يصنع السفينة ليركب فيها هو وجماعته المؤمنون، ولم يكن لنوح عليه السلام ولا لغيره معرفة بصنع الفلك ، ولذلك أوحى الله إليه صنعها وعلمه كيف ينبغي أن تكون عليه السفينة كما قال تعالى: ا وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود:٣٧]، وإنما أمره تعالى بعدم مراجعته في شأنهم لأن عذابه عز وجل إذا جاء لا يُردّ عن القوم المجرمين ، ولعله قد تدركه رقّة عند معاينة العذاب النازل بهم. وأخذ نوح عليه الصلاة والسلام يصنع السفينة بأمر الله ووحيه ، وجعل قومه يمرون عليه فيهزأون ويسخرون ويقولون له : صِرتَ نجاراً يا نوح بعد أن كنت نبياً ، ويقولون: ماذا تقصد يا نوح بهذه السفينة؟ وأين الماء الذي سيحملها وهي في البر بعيدة عن البحر؟ وجابههم عليه السلام بكلمة قوية كشفت عما ينتظرهم من ذلة وهوان بما كسبت أيديهم في الدنيا، وما ينتظرون في الآخرة من عذاب مقيم كما ورد في القرآن الكريم ا قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود:٣٨، ٣٩]. والمعنى إنا واثقون من مصيركم المحزن ونهايتكم الأليمة،

ولسوف ترون بأعينكم وتلمسون بأيديكم من منا الذي سيلحقه الخزي والعار والعذاب والدمار في الدنيا، ثم يحلّ عليه بعد ذلك عذاب الآخرة وهو العذاب الدائم الأليم، ثم جاء أمر الله بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، ففار التنور ، ولعل كلمة التنور وإطلاقها على الأرض من باب التشبيه لها بالفرن على أساس ما يوجد في باطنها من الكتل النارية الملتهبة ، والتي نشاهدها عند تصاعد النيران من البراكين ، والله أعلم، وكان للناس عجباً أن يتفجر ماء الطوفان من موقد النيران ، ولكن كانت هي العلامة التي أوحى الله بها إلى نوح ليعلم أن ساعة القصاص قد حانت ، وأن أمر الله قد نفذ في أعداء دينه ، فلما ظهرت العلامة ركبوا في السفينة وأرسل الله من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا بعده كأنّهُ أفواه القِرَب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها كما قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر:١٠-١٤] . وركب نوح في السفينة ومن آمن معه وكانوا عدداً قليلاً في حدود الأربعين كما ورد في بعض الروايات ، وأمره الله بأن يحمل معه في السفينة من كل حيوان وطير ووحش وغيره زوجين اثنين كما قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[هود:٤٠]، وفي هذا الجوّ الرهيب والوقت العصيب يتطلع نوح إلى ابنه كنعان الذي لم يركب مع إخوته الثلاثة سام وحام ويافث فيراه قد فرّ إلى جهة لم يكن قد وصلها الماء فيناديه بعاطفة الأبوة وقلبه الرحيم: ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [هود:٤٢]، ولكن الابن الجاحد المعاند لا يلبي دعوة الرحمة والحنان ولا

يجيب داعي الإيمان بل يركب رأسه ويمضي في ركاب الشيطان قائلاً: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾. [هود:٤٣] ناسياً أن هذا ليس سيلاً عادياً تصدّه التلال وتعصم منه الجبال والمرتفعات، إنما هو أمر الله وقدره النافذ الذي لا عاصم منه إلا رحمته لمن يشاء من عباده:. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾[هود:٤٣].وهكذا يمضي الولد العاقّ سادراً في غيّه وضلاله مع الكفار الجاحدين حيث حلت عليهم النقمة و أدركهم الموت: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[هود:٤٤] وكان نوح عليه السلام مطمئناً إلى وعد الله له بالنجاة له ولأهله وللمؤمنين معه ، وواثقاً أيضاً بمصير الظالمين ونهايتهم الأليمة ، وأيقن حق اليقين أن الله قد استجاب دعاءه: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا ٢٧﴾[نوح:٢٦، ٢٧]، وحينئذ تذكّر نوح ابنه وتذكّر قول الله له ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ [العنكبوت:٣٣]، فظن أن ابنه ممن كتبت لهم النجاة لأنه من أهله ونسي الشرط الأساسي للنجاة وهو الإيمان بالله، فلجأ إلى الله قائلاً:

﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾[هود:٤٥]، فعاتبه الله عز وجل حيث قال سبحانه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾[هود:٤٦]، وعند ذلك تذكر وأناب وطلب من الله المغفرة والرحمة. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود:٤٧].

نـوح عـلـيـه الـصـلاة والـسـلام

الـخـطـبـة الـثـانـيـة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، أحمده سبحانه وأشكره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا محمـــداً عبد الله ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمـــد وعلى آله وصحبه .

أما بعـــد: فلقد انتهى الطوفان بعد أن غرق أهل الأرض في زمن نوح عليه السلام و لم يبقَ إلا من آمن وركب السفينة ، وكان انتهاء الطوفان بعد أن أمر الله السماء أن تكف المطر ، والأرض أن تبتلع الماء الذي غمرها ، وأن تعود الحياة كما كانت على ظهر الأرض وحيث كانت قد وصـــلت إلى جبل يسمى الجودي ، والله أعلم أنه إلى جانب دجلة عنـــد الموصـــل في العراق، قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[هود:٤٤]، وحين استقرت السفينة على الجودي وغاض الماء أمر الله نوحاً ومن معـــه أن ينـــزلوا منها بسلام وأمان وبركات من العزيز الرحيم بعد أن مكثـــوا وبقوا فيها على الماء تطوف بهم مائة وخمسين يوماً كمـــا ورد في بعـــض الروايات. وهكذا كانت حياة نوح عليه السلام مع قومه بعد أن مكـــث وعاش زمناً وقروناً طويلة وهو يدعوهم إلى الله وهي أطول حياة عاشـــها إنسان ، والله أعلم، ويُروى عنه أنه سُئل حين حضرته الوفاة: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيتٍ له بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت مـــن الآخر. وهكذا ينبغي أن تكون نظرة المؤمنين المخلصين إلى الدنيا الفانيـــة

ومتاعها الزائل:((وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وما أجمله وأروعه من تعقيب إلهي في نهاية قصة نوح عليه السلام مع قومه لتذكير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى يـــوم الدين بحقائق ثابتة وسنن لا تتغير ولا تتبدل وما عليهم إلا أن يصبروا على ما يلاقونه من إعراض وعناد وكفر يتكرر في كل زمان ومكان، وعليهم أن يحتسبوا الأجر ويطلبوه من الله لأن العاقبة للمتقين ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۛ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[هود:٤٩]. تلك حقيقة حتمية وسنة ثابتة لمن تذَرّعَ وتحمّل بالصبر وكان من عباد الله المتقين فإن العاقبة والنتـــائج الطيبة في الدنيا والآخرة هي للمـــتقين ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩].